البلاغ الأخير في ولاية الأمير عليه السلام

الكُتّاب: فاطمة صباح (عراق)[1]، حسين خانجوس (ايران)[2]

استلام: ١٤٣٦/٦/٣ قبول: ١٤٣٧/٤/١٢

الملخص

إن خطبة الوداع وحادثة الغدير وتنصيب الإمام علي عليه السلام ولياً للمسلمين من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وإماماً لهم وأميراً للمؤمنين، لم تأتِ من فراغ؛ إنما كانت حكمة إلهية أظهرها الرسول صلى الله عليه وآله في تلك الواقعة ودعّمها الله سبحانه وتعالى بالآية الأخيرة التي تقول: «**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**»،[3] فولاية أميرالمؤمنين علي عليه السلام العباد هي نفس ولاية الرسول صلى الله عليه وآله الممتدة من ولاية الله عز وجل عليهم، وهي النظام الأصلح للأمة فيها كمال الدين ورضى رب العالمين؛ لذا كان الانحراف والتخلف عن خط الولاية سبباً في تقطع أوصال الأمة وتشتت أمرها وظهور الحركات التكفيرية وجعلها هدفاً سهلاً للمشركين والذين كفروا. ومن أراد أن يسلك الطريق الأقصر والأوضح للوصول إلى نور المعرفة ونور الحياة والسعادة عليه أن يتمسك بخط الولاية.

الكلمات الرئيسة: الغدير، الإبلاغ، الولاية، الإمامة

١- طالبة في لجنة الشريعة الإسلامية، جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالمية، قم، ايران، fatima-sabbah@hotmail.com

٢- محاضر فى لجنة القرآن والحديث، جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله المفتوحة، قم، ايران، khanjous@gmail.com

٣- المائدة: ٣.

المقدمة

حادثة الغدير من الحوادث التاريخية المعروفة، اكتست أهميتها من وقوعها في خط المشروع الإلهي، وتعتبر فاروقاً بين الحق والباطل، بين من أطاع الله وقال لبيك اللهم لبيك وبين من عصى الله وانقلب على عقبيه. بدأت هذه الحادثة عندما نزل الوحي قائلاً: «**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**»[1] فما الذي أنزل ولم يبلغه الرسول ﷺ إلى تلك الساعة؟ وما هو كنهه ليساوي رب العالمين بينه وبين تبليغ كامل الرسالة؟ مع العلم أن الرسالة المعنية هي الرسالة الخاتمة التي نسخت ما جاء قبلها من رسائل سماوية.

ولماذا كان في التبليغ المأمور به كمال الدين وتمام النعمة ورضا رب العالمين بالإسلام دينا؟ أسئلة عديدة كل منها يحتاج في بيانه إلى بحوث خاصة مستقلة ومطولة. فالحقيقة بعيدة المدى في عمق الزمان، في عالم الإمكان، فولاية الرسول والذين آمنوا من سنخ ولاية الله جلّ جلاله. وليست هي وظيفة أحدثت من أجل علي ؑ ولا مهمة اُخترعت له، في هذا البحث سوف أستعرض فقط البلاغات التي أطلقها رسول الله ﷺ في حادثة الغدير.

مضمون الحادثة

يناديهم يوم الغدير نبيهم	بخمّ وأسمع بالرسول مناديا
وقال: فمن مولاكم ونبيكم؟	فقالوا ولم يبدوا هناك التعاديا

١- المائدة: ٦٧.

إلهـــك مولانـــا وأنـــت ولينـــا ولـن تجـدنّ منّـا لـك اليـوم عاصـيا[1]

حديث الغدير من الأحاديث المتواترة من عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى يومنا هذا. تسالم عليه الفريقان إلا بعض الشذاذ الذين تنكبوا عن الطريقة.[2] ومضمون ما جاء في الحديث أن الحدث حدث يوم الخميس الواقع فيه الثامن عشر من ذي الحجة أثناء عودة رسول الله صلى الله عليه وآله من حجة الوداع إلى المدينة مع جموع من المسلمين- قيل ثمانين ألف على أقل تقدير- وحينما وصلوا إلى غدير خم في الجحفة، نزل الأمر الإلهي:

«**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**».[3]

فتوقف رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر بأن يُرد من كان تقدم من القوم وأن يُحبس من تأخر عنهم، وبعد تجمعهم نودي بالصلاة، ولما قضيت، قام خطيباً، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، أخبر القوم بقرب ارتحاله وانتقاله إلى الحياة الأخرى، وأشهدهم على أنه قد بلغ أحكام ربه، ثم قال:

إني فرطٌ- متقدمكم- على الحوض فانظروني كيف تخلفوني في الثقلين.

فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟

قال: الثقل الأكبر كتاب الله والأصغر عترتي، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.

١- ابن شهر آشوب، ١٣٧٩، ج٣، ص. ٢٧؛ البحراني، ١٣٧٤، ج٢، ص. ٢٤٤؛ المفيد، ١٤١٣، ج١، ص. ١٧٧ (الشعر لحسانبن ثابت).

٢- لمن أراد معرفتهم فقد ذكر العلامة الأميني أسماء المؤلفين وخصوصيات كتبهم في الجزء الأول من كتاب الغدير، من الصفحة ١٥٢ إلى الصفحة ١٥٧.

٣- المائدة: ٦٧.

ثم أخذ بيد علي ﷺ فرفعها- حتى بان بياض إبطيهما وعرفه القوم أجمعون- وقال أيها الناس! من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليٌ مولاه.

قالها ثلاث مرات.

ثم قال: اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه ... وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب ولم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله:

«**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**».[1]

فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب برسالتي، والولاية لعلي من بعدي ثم أخذ الناس يهنؤون علياً وممن هنأه في مقدم الصحابة الشيخان أبوبكر وعمر، كلٌ يقول:

بخٍ بخٍ لك يا ابن أبي‌طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.[2]

من هذه الحادثة نستنتج عدة بلاغات أطلقها رسول الله. بلاغات لم يختلف فيها يومها اثنان منها:

١- تتويج علي ﷺ بالولاية رسمياً

«إنّ أمرنا صعبٌ مستصعبٌ لا يحمله إلّاعبدٌ مؤمنٌ امتحنَ اللَّهُ قلبه للإيمان ولا يَعي حديثنا إلّا صدورٌ أمينةٌ وأحلام رَزينة».[3]

١- المائدة: ٣.

٢- الأميني، ١۴٢٢، ج٢، صص. ۴٢-٣۴؛ المجلسي، ١۴٠٣، ج٧، ص. ١۴٢.

٣- الكليني، ١۴٢٩، ج٢، ص. ٣٣٣.

كان النبي صلى الله عليه وآله يوجه أنظار المسلمين إلى العظمة في شخصية علي عليه السلام وإلى أنه الوحيد الذي يستطيع أن يتمم شروط الرسالة بعده، فكان يقول علي مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي، ولم ينتظر حادثة الغدير ليعلن عن خليفته ووصيه، وهو الحريص على الإسلام والمسلمين، وقد تحمل في سبيل نشر الرسالة والحفاظ عليها ما لم يتحمله غيره من الأنبياء حتى أنه صلوات الله عليه قال:

«ما أوذي نبى مثل ما أوذيت».[١]

لذا نجده من أجل حفظ هذه الرسالة من كيد الكائدين، يعمل على تسليط الضوء على الخلافة وتحضير الأذهان لفكرة الولاية منذ أولى خطواته في الدعوة العلنية، فقد شاءت الحكمة الإلهية التدرج في الإعلان فقالت:

«**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**».[٢]

وتجلت وحدة النبوة والإمامة في وحدة الهدف وتمّ الإستخلاف الأول لعلي عليه السلام بإعلان خط الولاية في حادثة الدار، واستكملت الخطوات يوم الغدير بالتأكيد على خط الولاية، وكأن المولى سبحانه أراد للرسالة أن تبدأ بولاية علي وأن تختتم بها، وأن تسير بين الإعلان والإختام على لحن الولاية، لذا لم يترك رسول الله صلى الله عليه وآله مناسبة إلا وأنعش الأسماع بمعزوفة فضائل علي عليه السلام وولاية علي عليه السلام وتجسد الإستخلاف الأول ليلة المبيت وقام مقامه في رد الودائع إلى أهلها.

وفي حديث المسيب عن علي‌بن الحسين عليه السلام قال:

«وخلّف علياً عليه السلام في أمور لم يكن يقوم بها أحد غيره».[٣]

١- المجلسي، ١٤٠٣، ج٣٩، ص. ٥٦.

٢- الشعراء: ٢١٤.

٣- المجلسي، ١٤٠٣، ج١٩، ص. ١١٥؛ المعلم، ١٤٢٧، ص. ١٥٩.

وأصبحت تضحيات علي عليه السلام في سبيل حفظ الرسول صلى الله عليه وآله والرسالة لا لأجل مثوبة ابتغاها، بل لأنه فهم التوحيد بأروع معانيه، فعاشه بصدق وإخلاص، فكان أخا رسول الله صلى الله عليه وآله ونفسه، والحامي والمدافع، وكان نور الله، ويد الله، وباب الله، وعين الله في خلقه، وكان مع الحق، ومع القرآن بل عِدل القرآن كما في حديث الثقلين وغيرها من الأحاديث التي كانت تكشف بعضاً من شخصية علي عليه السلام يطلقها رسول الله صلى الله عليه وآله أوسمة ناصعة على صفحات التاريخ يتناقلها من حضر من المؤمنين، أما تنصيب علي ولياً يوم الغدير فقد كان تنصيباً إلهياً رسمياً حضره آلاف المسلمين ليكون حجة عليهم يوم الدين. وليبقى الحدث حياً بامتداد العصور.

فقد شاء الله تعالى لهذه الحادثة أن تحيا وتكبر عبر السنين لتطال الأجيال جميعها، فيحيى من حي على بينة من أمره، ويهلك من هلك كذلك عن بينة من أمره، والدليل على هذه الإرادة والمشيئة قول الرسول صلى الله عليه وآله في ذيل خطبته: «ألا فليبلغ الشاهدُ الغائبَ».

وهو بلاغ مطلق فكلّ مَن شهد الحادثة أو سمع بها من ثقة أصبح مكلفاً بتبليغها؛ وبهذا البلاغ خرج دين الله من مرحلة الحدوث إلى مرحلة الثبوت والبقاء، ويئس الذين كفروا من القضاء على دين محمد وإطفاء نور الله، فهؤلاء كانوا يعيشون أحلام اليقظة التي تعطيهم الأمل والرجاء بزوال الدين مع موت الرسول صلى الله عليه وآله الذي لا عقب له يخلفه في أمره أو ملكه كما يحسبونه، ومع تبليغ أمر الله بالولاية لعلي عاش هؤلاء حالة الكمد واليأس من تحقق أحلامهم، «**وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**».[1]

١- التوبة: ٣٢.

٢- الولاية تنصيب إلهي

«فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولّاك وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم».[١]

لقد أثبت في علم العقيدة إن الغرض من بعثة الأنبياء عليهم السلام هو هداية الناس، وفي هداية الناس أمران:

معرفة الله تعالى وعبادته، ومعرفة المصالح والمفاسد وما يترتب عليهما، وهذا الغرض يتحقق ما دام النبي صلى الله عليه وآله حياً في أمته، والسؤال بعد النبي صلى الله عليه وآله من يضمن تحقق الغاية في المجتمعات الإنسانية؟

فهل من العدل أن يترك الله الأجيال التي لم تشهد الرسول صلى الله عليه وآله هكذا من دون راع وقائد رباني بنفس صفات الرسول صلى الله عليه وآله يضمن استمرار الشريعة ويُضيء لهم طريق سعادتهم؟

حاشا لله أن يحيف في عدله، وهو المنزه عن الظلم والقبح عقلاً، قبل أن ينزه شرعاً «**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**» وما يصب في موضوعنا قوله تعالى:

«**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**».[٢]

قال السيد الطباطبائي في تفسير الآية:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا المنذر وعلي الهادي».[٣]

١- نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

٢- الرعد: ٧.

٣- الطباطبائي، ١٤١٧، ج١١ ، ص. ٣٢٩.

وفي حديث لرسول الله ﷺ مع ابنته فاطمة عليها السلام قال:

«يا فاطمة إن الله عز وجل إطلع إلى الأرض فاختار منها أباك فبعثه نبياً ثم اطلع إليها الثانية فاختار منها بعلك. ففي الإطلاعة الأولى يتولى الله (جلت حكمته) انتخاب وجعل محمد ومنذ خلقه نوراً نبيا وفي الإطلاعة الثانية ينتخب شطر نور محمد الآخر المسانخ له جوهراً فيجعله وصياً وتالياً».[1]

ولكي يتمّ الغرض وتتمّ الحجة لله على الناس بيَّن لهم مشروع الولاية والحاكمية وعرف لهم الحجة قائلاً:

«**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**».[2]

نلاحظ أن المولى سبحانه قد صدّر الآية بأداة حصر تفيد حصر الموضوع بما هو متعلق به، وتمنع من دخول الأغيار فيه؛ ونجد أنه سبحانه قد إختص الولاية بذاته المقدسة؛ فله سبحانه السلطة المطلقة على عباده وبإذنٍ منه وبواو عاطفة تفيد التلازم. أعطى هذه الولاية الخاصة لرسوله الأعظم محمدٍ ﷺ وعدم القيد يدل على أن الولاية المعطاة لمحمد ﷺ هي بحجم ولاية الله عز وجل؛ وبواو عاطفة أخرى خالية من القيود.

أعطى سبحانه مفاعيل هذه الولاية المطلقة على العباد للذين آمنوا، وميزهم بصفات إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم راكعون في طاعة الله، وهذه الصفات بإجماع السنة والشيعة مقصورة على أميرالمؤمنين علي عليه السلام وبهذا تكون ولاية علي عليه السلام ولاية مطلقة على العباد غير مقيدة بشرط أو قيد ممنوحة من الله تعالى،

١- المعلم، ١٤٢٧، صص. ١٧٩-١٧٤.

٢- المائدة: ٥٥.

وليس لأحد غيره إعطاؤها لمن يشاء، وليس هذا الأمر للرسول صلى الله عليه وآله مستقلاً عن الله تعالى يعطيه لمن يشاء، بل هو لله وحده، ولهذا الرأي صدى في السنة الشريفة لمّا دعا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بني عامر إلى الإسلام وكانوا قد جاؤوا في موسم الحج إلى مكة.

قال رئيسهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟

قال النبي صلى الله عليه وآله: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء».[1]

وأما لماذا لم يذكر علي في الآية الشريفة بالإسم فلأن التلميح بالصفات «**يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**» أبلغ وأفضل من التصريح بالإسم الصريح كما هو معروف عند أهل البلاغة.

٣- الولاية خط متمم لخط النبوة صلى الله عليه وآله

«واعجباه! أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة».[2]

تعتبر النبوة والإمامة جناحي التوحيد بهما تعلو العقيدة عن الشرك والشبهات، فالنبي يهدي إلى التوحيد والإمام يحفظهم عليه ويمنعهم من الانحراف عنه، فهما النور الجلي الذي اعتنت به يد القدرة الإلهية فجعلته جزئين: جزء محمد وجزء علي، فكان لمحمد النبوة ولعلي الولاية.[3]

ونحن إذا تأملنا ما جاء في مستهل الخطبة حيث قال:

«من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟»

قالوا: «الله ورسوله أعلم».

١- السبحاني، ١٤١٠، ج٢، ص. ٥٦٨.

٢- نهج البلاغة، الحكمة ١٨٠.

٣- ابن أبي‌الحديد، ١٤١٥، ج٩، ص. ١١٧ (مقتبس من حديث النور).

قال: «إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعليٌ مولاه».

نلحظ أنه قد عمل بالنهج القرآني، فبعد أن استثار عقول المسلمين بسؤاله: «من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم» فرع طبقات الولاية، فهي أولا وبالأصالة لله تعالى: «إن الله مولاي» «**إنما وليكم الله**» ومن ولاية الله تتفرع ولايتي فهي لي عليكم «وأنا مولى المؤمنين» «**ورسوله**» بالحكم الرباني «**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**».[1]

ومن ولايتي تتفرع ولاية الوصي بعدي «**والذين آمنوا**» فمن كان يؤمن بأن لي ولاية عليه فهذه الولاية هي لعلي بعدي «فمن كنت مولاه فعلي مولاه».

وبهذا تكون الولاية والوصاية على الناس معروفة محددة فلا يقول أحد لم أعرف. وبما أن الولاية فرع النبوة، أوجب الله تعالى لها طاعة العباد كما للأصل بالنص القرآني فقال:

«**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**».[2]

فطاعة الولي كطاعة الرسول وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله جل جلاله، وطاعة الله تعالى ثابتة بحكم العقل. وفي الحديث عن ابن عباس قال:

«قال رسول الله ﷺ: إن الله افترض طاعتي وطاعة أهل بيتي على الناس وعلى الخلق».[3]

بهذه الطاعة وبهذه الولاية صدح رسول الله ﷺ على رؤوس الأشهاد: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه».

١- الأحزاب: ٣٦.

٢- النساء: ٥٩.

٣- المعلم، ١٤٢٧، ص. ١٧٦.

ولاية هي بنفس حجم ولاية الرسول صلى الله عليه وآله نفسه، وقد زاد في إظهار مقام الولي بأن جعل مَنْ والاه ولياً لله، ومَنْ عاداه عدواً لله. وبهذا يكون خط الولاية خط متفرع عن خط النبوة صلى الله عليه وآله وحافظ لها؛ له ما لها وعليه ما عليها من مهام السير بالمجتمع الإنساني في طريق الكمال. فهو عين الله السهرة على خلقه، يرعاهم برعايته، فيحفظ لهم دينهم ويمنعهم عن التقهقر والتقلب في سبل الضلال والإنحراف، ولولا الولاية لكان الدين تشريعا محدوداً بفترة زمنية محدودة نهايتها ارتحال رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الدنيا ؛ وهنا أحب أن أذكر بعض مقتطفات من مهام الوالي التي ذكرها أمير الكلام عليه السلام في أمره إلى الأشتر حين ولاه مصر" فمن مهامه تجاه البلد:

«جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها... وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكنن عليهم سُبعاً ضار تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق... ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء... واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى لبعضها عن بعض... وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج... وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن... واجعل لذوي الحاجات منك قسماً... فلا تكونن منفراً ولا مضيعاً ولا تطولن احتجابك عن رعيتك... ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى... إياك والدماء وسفكها بغير حلِّها... وإياك والإعجاب بنفسك... وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة».[1]

فمن كان هذا مفهومه للولاية ولراعي الأمة، ومن كان اكتسب هذا المفهوم من ولي الله ألا يستحق أن يوليه نبي الله صلى الله عليه وآله إمارة المؤمنين؟

١- نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

٤- نظام الملة وكمال الدين

«أشقى الرعاة من شقيت به رعيته».[١]

ختم رسول الله ﷺ خطبته بوصية ذات أهمية عالية؛ العمل بها يضمن نجاح الأمة وفلاحها؛ فهي بمثابة المنطلق والأساس لعهد جديد- عهد الولاية والوصاية- عندما شرح لأحد المؤمنين معنى الثقلان ومدى تلازمهما، قال:

«الْأَكْبَرُ كِتَابُ اللَّهِ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ لَنْ تَزِلُّوا وَلَا تَضِلُّوا وَالْأَصْغَرُ عِتْرَتِي وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ وَسَأَلْتُ لَهُمَا ذَلِكَ رَبِّي فَلَا تُقَدِّمُوهُمَا فَتَهْلِكُوا وَلَا تُعَلِّمُوهُمَا فَإِنَّهُمَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ».[٢]

بهذا الحديث قرن رسول الله ﷺ بين القرآن وأهل البيت عليهم السلام وأنزلهم منزلته وقد جاء في الحديث ما يفيد نفس المعنى تقريباً، ففي الكافي عن بريدبن معاوية قال:

قُلتُ لأبي جعفر عليه السلام: «**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**».[٣]

قال: «إيانا عَنَى، وعليٌّ أوَّلنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي ﷺ».[٤]

فالذي عنده علم الكتاب الذي فيه بيان لكل شيء حتماً سيكون نظاماً للملة، وكمالاً للدين، فسوف يأمر بما جاء في الكتاب الكريم، ولن يحتاج إلى من يبين له أمراً من أمور الدين، أو يوضح له مسألة يجهلها، أو يفتي له بشيء تحتاجه الأمة، فمن عنده علم الكتاب لن يخرج الناس من هدى ولن يدخلهم في بدعة وضلالة، فالذي عنده علم الكتاب ينحدر عنه السيل ولا يرقى اليه الطير،

١- ابن أبي‌الحديد، ١٤١٥: ج١٢، ص. ٩٢.

٢- الحر العاملي، ١٤٢٥: ج٢، ص. ٣٢٠؛ المجلسي، ١٤٠٣، ج٢٣، ص. ١٥٢.

٣- الرعد: ٤٣.

٤- الكليني، ١٤١٨: ج١، ص. ٢٥٦.

إنه النبأ العظيم الذي هم فيه يتساءلون، إنه تلك الشخصية الفذة التي تغذت من عصارة الوحي الإلهي، فنبتت منبتاً إلهياً، يحب الله ورسوله صلى الله عليه وآله ويحبه الله ورسوله صلى الله عليه وآله لا يخاف في الله لومة لائم ولو أن الأمة ثبتوا على ولايته واستقاموا على الإسلام لكان فيه خيرهم وصلاحهم «**وَأَن لَوِ استَقاموا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسقَيناهُم ماءً غَدَقًا**».[١]

النتيجة التي نخلص بها من واقعة الغدير أن الولاية هي نظام للأمة بها يكمل الدين وبدونها يُمحق ويذهب المشروع الإلهي بأكمله وتعب النبيين والمرسلين أدراج الرياح؛ وهذا ما أكده ذيل آية البلاغ المتقدمة الذكر، وما ألفت إليه المولى سبحانه عندما أمر عباده بأن يستمسكوا بالعروة الوثقى وبحبل الله المتين لئلا يفشلوا وتذهب ريحهم، فقال:

- «**وَاعتَصموا بِحَبلِ اللَّهِ جَميعًا وَلا تَفَرَّقوا**»؛[٢]
- «**وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**».[٣]

وهذا ما أظهرته فاطمة عليها السلام في خطبتها حيث قالت: «جعل الله ... وَطَاعَتَنَا نِظَاماً لِلْمِلَّةِ وَإِمَامَتَنَا أَمَاناً مِنَ الْفُرْقَةِ...».[٤]

١- الجن: ١٦.

٢- آل عمران: ١٠٣.

٣- لقمان: ٢٢.

٤- ابن بابويه، ١٤١٣: ج٣، ص. ٥٦٨.

من كلامها يظهر أن الولاية هي النظام الأصلح للأمة، تمنع تفرق أبنائها إلى أحزاب وشيع، كما حدث عندما لم تأخذ الناس بعين الاعتبار التحذير الإلهي لهم من مغبة الانحراف عن الولي والولاية بالقول:

«وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ منْ قَبْله الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابكُمْ وَمَنْ يَنْقَلبْ عَلَى عَقبَيْه فَلَنْ يَضرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكرِينَ».[1]

فالولاية ثابتة باقية يجزي الله المتمسكين بها الشاكرين لله أن أنعم عليهم بنعمة الولاية والله يحب الشاكرين، وهذا يعني أن التارك للولاية المنحرف عنها لا يطاله الجزاء الإلهي بل يكون من الأخسرين أعمالا.

الخاتمة

إن النظرة إلى قضية الولاية بصورة كاملة غير متجزأة تنسجم انسجاماً تاماً مع المنظومة الإسلامية؛ لا بل هي السور العظيم الذي يصون الإسلام من الوهن والضعف والعي، وتحفظ المسلمين في مسلك الصراط المستقيم؛ فليس الأمر هو ولاية علي عليه السلام أو غيره؛ وعلي عليه السلام نفسه يخبر بأن لاقيمة للإمرة عنده الا أن يقيم حقاً أو يزهق باطلاً؛ فهي وعفطة العنز سواء عنده، بل المسألة مسألة امتثال لأمر الله تعالى في خلافة الإنسان الكامل القادر على إقامة العدل وقيادة الناس في طريق الكمال المادي والمعنوي؛ إنسان هو من رسول الله صلى الله عليه وآله كالضوء من الضوء والذراع من العضد.

١- آل عمران: ١٤٤.

هذا والعقل السليم يحكم أنه إذا قضى المولى أمراً فلا راد لحكمه، ولا خيرة للإنسان فيما خار له ربه ومولاه.

قال الله تعالى: «... **قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا**»،[1] هؤلاء تمسكوا بالثقل الأكبر فسالت عنهم أبحر العلم، وساروا على نهج الثقل الأصغر. عملوا على حفظ الدين ونشره وتقوية شوكة المسلمين. فكانوا الفكر الذي يقوم الانحراف والاعوجاج والعين التي تقاوم المخرز واليد التي تهزم الجبروت وتجعله تحت أقدام المؤمنين الأحرار. ومن أراد أن يسلك الطريق الأقصر والأوضح للوصول إلى نور المعرفة نور الحياة والسعادة عليه أن يتمسك بخط الولاية.

المصادر

١- **القرآن الكريم.**

٢- **نهج البلاغة.**

٣- الأميني النجفي، عبدالحسين.، (١٤٢٢)، **الغدير في الكتاب والسنة والأدب**، قم: مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

٤- ابن أبي‌الحديد، عبدالحميدبن هبةالله.، (١٤١٥)، **شرح نهج البلاغة**، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٥- ابن بابويه (الصدوق)، محمدبن علي.، (١٤١٣)، **من لا يحضره الفقيه**، قم: مؤسسة النشر الإسلامي.

٦- ابن شهر آشوب، محمدبن علي.، (١٣٧٩)، **مناقب آل ابي‌طالب عليهم السلام**، قم: مؤسسة علامة.

١- الكهف: ١٤.

٧- البحراني، السيد هاشم.، (١٣٧٤ش)، **البرهان في تفسير القرآن**، قم: مؤسسة البعثة.

٨- الحر العاملي، محمدبن حسن.، (١٤٢٥)، **إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات**، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٩- السبحاني، جعفر.، (١٤١٠)، **الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل**، بقلم حسن محمد مكي العاملي، بيروت: الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.

١٠- الطباطبائي، السيد محمد حسين.، (١٤١٧)، **الميزان في تفسير القرآن**، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

١١- الكليني، محمدبن يعقوب، (١٤١٨)، **الكافي**، قم: دار الأسوة للطباعة والنشر.

١٢- المجلسي، محمد باقر.، (١٤٠٣)، **بحارالأنوار**، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٣- المعلم، محسن علي.، (١٤٢٧)، **علي عليه السلام إمام الدين والدولة**، بيروت: دار الهادي.

١٤- المفيد، محمدبن محمد.، (١٤١٣)، **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد عليهم السلام**، قم: موسسة آل البيت عليهم السلام.